جبر الخواطر عند رسول الله ﷺ

جبرُ الخواطرِ خُلقٌ كريمٌ ومعنى عظيمٌ من صفاتِ الله _تعالى_ التي يُحبُّ أن يراها في عبادِه المؤمنينَ؛ ولذلكَ كانَ الحظُ الأوفرُ منها لسيِّدِ المُرسلينَ، وإمامِ المتقين محمد _عليه الصلاةُ والسلامُ_.

لذا لم يكن ولن يكون إنسان مثل الرسول _ ﷺ _ في تلك العبادة العظيمة، وذلك الخلق الكريم، ألا وهو جبر الخواطر؛ فهو الأسوة الحسنة في كل خلق عظيم، ومن يستعرض حياة النّبيّ _ ﷺ _ يجدها مبنيّةً على جبر الخواطر، مع الصّغار والكبار والفقراء والضّعفاء، فهو مدرسة هذا الخُلق ومشكاة هذا الفنّ.

عن عبدالله بن عمر _رضي الله عنهما_، أن النبي ﷺ قال: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه

أمضاه ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل) [٢٤]

ويقول النبي _ ﷺ _: تبسمك في وجه أخيك صدقة.

ويقول: الكلمة الطيبة صدقة.

وكان يدعو رسول الله بين السجدتين يقول: "اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وعافني وارزقني". [٢٥]

والأمثلة كثيرة التي تدل على اتصاف النبي بهذا الخلق العظيم، وتطبيقه لهذه العبادة، عبادة جبر الخواطر.

عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنه _ قال: لقيني رسول الله _ ﷺ _ فقال لي: يا جابر، مالي أراك منكسراً، قلت: يا رسول الله، استشهد أبي (قتل يوم أحد وترك عيالاً وديناً، (أخوات ودين، وليس إلا جابر)، قال _عليه الصلاة والسلام_: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال:

---

[24] أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب قضاء الحوائج (ص ٤٧، رقم ٣٦) وحسنه الألباني (صحيح الجامع).

[25] أخرجه أحمد وأبو داود

ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً، فقال: يا عبدي تمن عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب _ﷻ_: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون).

تأمل أيها القارئ أول كلمة قالها النبي لجابر، قال: أبشرك، هذا ما نريده عندما ترى مهموماً ومغموماً وحزيناً، قل له أبشر، وحدثه عن حسن الظن بالله، حدثه عن التفاؤل والأمل إلى غير ذلك من الكلام الذي بفضل الله يغير حالة هذا الحزين المهموم، فهذا من أعظم العبادات التي يغفل عنها الكثير منا للأسف.

كان _عليه الصلاة والسلام_ يطيّب خواطر هؤلاء الذين أثقل كاهلهم الدين، ولا يجدون ما يواجهون به مهمات الحياة ووظائفها: دخل_عليه الصلاة والسلام_ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة، مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني، وديون يا رسول الله، قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله_ ﷻ_ همك، وقضى عنك دينك، قلت: بلى يا رسول الله؟ قال: قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم، والحزن، وأعوذ بك من العجز، والكسل، وأعوذ بك من

الجبن، والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال، قال أبو أمامة: ففعلت ذلك، فأذهب الله_ ﷻ _ همي وقضى عني ديني

إذن: قد يكون تطييب الخاطر بدعاء تعلَّمه ذلك المصاب، ويستجيب الله له، فتدخل عليه الفرحة والسرور.

وها هو زيد بن أرقم وهو غلام صغير لما سمع كلام أحد المنافقين وأراد أن ينصر الاسلام والمسلمين فبلغ عمه ليبلغ رسول الله مقالة هذا المنافق وهو صادق، وحريص على مصلحة الإسلام، وكان واعياً لمؤامرات المنافقين، لكن لم يكن معه إثبات في نقله، أو مستند، وحجة في مواجهته لهؤلاء المنافقين وهو صغير السن، فلا يؤخذ بقوله، بل يستنكر عليه فينكسر، فينزل الله قرآناً في تطييب نفس ذلك الغلام، عن زيد بن أرقم _رضي الله عنه_: أنه لما سمع قول عبد الله بن أبي لأصحابه وكان بمعزل عن جيش المسلمين، ولم يأبهوا لذلك الغلام، فقال عبد الله المنافق لأصحابه: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أبلغ زيد عمه، وأبلغ العم رسول الله ﷺ، كلمة خطيرة جداً، فأرسل النبي ﷺ لعبد الله بن أبي، جاء، وحلف، وجحد، قال زيد: فصدقه رسول الله ﷺ (وصار اللوم على زيد، كيف تنقل مثل هذا الكلام الخطير، أنت غلام لا

تعلم ماذا يترتب على مثل هذا الكلام)، قال زيد: فوقع عليّ من الهم ما لم يقع على أحد، فبينما أنا أسير قد خفقت برأسي من الهم، (هذا غلام انكسر قلبه وخاطره من جراء رد قوله، ولوم الناس له وهو صادق)؛ تأمل أيها القارئ رغم أن النبي يعلم صدقه وكذب المنافقين، لكن الاسلام العظيم يعامل الناس بالظاهر وليس بما في قلوبهم، حتى لو كان ما في قلوبهم الكفر والجحود والحقد على الإسلام وأهله، فيقول زيد بعد ذلك: أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني أي فركها وداعبه ، وضحك في وجهي، يقول زيد: فما كان يسرني أني لي بها الخلد في الدنيا، أي أن مداعبة النبي له وضحكه في وجهه أفضل عنده من الخلد في الدنيا والاستمتاع بها فيها، وهو سبب نزول قوله _تعالى_ في سورة المنافقون: (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ). سورة المنافقون. فانزل الله تصديق الغلام في كتابه، وأنزل آيات إلى يوم الدين تتلى، شاهدة على البر والوفاء، وعلى الوعي، وسرعة تبليغ النبي ﷺ بما حصل.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللهِ _ ﷺ _ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى

قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: (فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟) قَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟ قَالَ: (فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ)، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ، فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهَّ ﷺ فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهَّ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهَّ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهَّ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟)، قَالُوا: بَلِ اللهَّ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: (أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ)، قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهَّ، وَللهَّ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: (أَمَا وَاللهَّ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فلصدقتكم وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ

فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهَّ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ)، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهَّ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهَّ _ ﷺ _ وَتَفَرَّقُوا.

انظر كيف طيب رسول الله خاطرهم وحول حالتهم إلى الرضا والسعادة.

وعندما جاء فقراء المهاجرين مكسوري الخاطر وقالوا: يَا رَسُولَ الله، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: "أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، إلى آخر الحديث..."

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى رَسُولِ اللهَّ _ ﷺ _ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ

يَخْرُجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ _ ﷺ _: (إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ)، وَكَانَ _النَّبِيُّ ﷺ _ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ _ ﷺ _ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي مَنْ هَذَا، فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ _ ﷺ _، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ _ ﷺ _ يَقُولُ: (مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِذًا وَاللهَّ تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ _ ﷺ _: (لَكِنْك عِنْدَ اللهَّ لَسْتَ بِكَاسِدٍ) أَوْ قَالَ: (لَكِنْك عِنْدَ اللهَّ أَنْتَ غَالٍ).

تأمل أيها القارئ كيف جبر رسول الله بخاطر زاهرورفع من شأنه بل إني _والله_ في مثل هذا الموقف أغبط سيدنا زاهر _رضي الله عنه_، وأقول ليتني هو، ليتني مكانه!

يخبره رسول الله بأنه غالي عند الله. يا لها من مكانة عالية!

وقريب من قصة زاهر قصة جليبيب _رضي الله عنه_.

قال له النبي _ ﷺ _ ذات يوم مداعباً إياه: يا جليبيب ألا تتزوج؟ فقال: يا رسول الله، ومَن يزوِّجني؟! استنكر السؤال؛ لأنه ليس له أسرة معروفة ولا مال ولا جمال، فقال له _ ﷺ _: أنا أزوِّجك يا جليبيب.

فالتفتَ جُليبيب إلى الرسول، فقال: إذاً تجدني كاسداً يا رسول الله، فقال الرسول: غير أنك عند الله لست بكاسد.

تأمل كيف رفع النبي _ ﷺ _ من معنوياته، ودعمه دعمًا نفسيّاً، وجبر بخاطره، فكسر الحاجز النفسي بمداعبته والترفيه معه، وتكفل بنفسه _ ﷺ _ بتزويجه، وبالفعل قام النبي بتزويجه امرأة عظيمة الشأن المكانة.

لكني أريد أن ألفت الأنظار إلى أن نفس الكلمة التي قالها سيدنا زاهر، قالها سيدنا جليبيب.

تجدني يا رسول الله كاسداً.

كان هذان الصحابيان دميمي الخلقة، لا يحب الناس النظر إليهما، ولا يعنون بشأنهما أو يقدرونهما حق قدرهما، لدرجة أن ذلك أثر على ثقة كل منهما بنفسه، وجعلته يشعر بهوانه على الناس وكساده، وعدم رغبة الناس فيه، حتى قالا تلك الكلمات التي تنم عن تدني نظرتهما لنفسيهما. هنا علمهما النبي _ ﷺ _، بل وعلم الأمة كلها تلك القيمة التربوية الرفيعة، وهذا المعنى العظيم. القيمة التي فُقدت في كثير من المجتمعات.

المادية التي لا تزن الناس أو تحكم عليهم إلا من خلال المظهر الخارجي أو المقام والمنصب، فتحقر هذا، وتنتقص من ذاك، وتمتهن كرامة هؤلاء،

وتسخر من أولئك، وهذا ما نسميه نحن اليوم بمصطلح التنمر، والتنمر ما هو إلى إلا شكل من أشكال الإساءة والإيذاء. فديننا ضد التنمر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ [26] ديننا ينهى عن إيذاء الآخرين والإساءة إليهم بأي شكل من الاشكال، بغض النظر عن كون الذي يقع عليه الإيذاء مسلم أو مسيحي أو غير ذلك، أو مصري الجنسية أو غير ذلك، أو فقير أو غني أو أبيض أو أسود. أو غير ذلك من الأمور.

بل دعا الاسلام إلى المحبة والود واحترام الناس وتطييب نفوسهم وجبر خواطرهم كما رأيت.

وكان ﷺ يهتمّ بأمر الضعفاء والفقراء والخدم، ويزورهم إذا مرضوا، ويجبر خاطرهم لأننا نعلم جميعاً أن الضعفاء والخدم هم مظنّة وقوع الظلم عليهم، والاستيلاء على حقوقهم، فكان يقول في شأن الخدم: (هم

[26] الحجرات: ١١

إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)، وقال _ ﷺ _: (إذا جاء خادم أحدكم بطعامه فليقعده معه أو ليناوله منه، فإنه هو الذي ولى حره ودخانه). [٢٧]

وكذلك اليتامى والأرامل، فقد حثّ الناس على كفالة اليتيم، وكان يقول: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بالسبابة والوسطى)، وجعل الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل، واعتبر وجود الضعفاء في الأمة، والعطف عليهم سبباً من أسباب النصر على الأعداء، فقال _ ﷺ _: (فإنما تنصرون وتُرزقون بضعفائكم).

بل شرعت التعزية، فإن تعزية المصاب في مصابه أمر شرعي ثبت عن رسول الله _ ﷺ _ من قوله وفعله.

قال النبي _ ﷺ _: "ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة" فشرعت التعزية لمواساة أهل الميت والتخفيف عنهم وتطييب نفوسهم وجبراً لخاطرهم.

---

[27] رواه ابن ماجة وأصله في مسلم.

وشرعت كذلك زكاة الفطر لإسعاد الفقراء ولمواساتهم في العيد وجبراً لخاطرهم،

ولعل من حكم الله أن جعلها فرض كذلك على الفقير جبراً لخاطره حتى يشعر بقيمة ولذة العطاء.